اللغة العربية لفظًا يجيء بمعناهُ او يقرب منهُ ويسهل تعميمهُ وضعوهُ لهُ واحلوهُ محلهُ وما لم يجدوا لهُ شيئًا من ذلك عربوهُ وادخلوهُ وبعد ما يفرغون من عمل الوضع التعريب يطبعونهُ ويوزعونهُ ولا يلبث ان يعمّ استعمالهُ وتشمل فائدتهُ

والاّ فاللغة المكتوبة لا توفي النيار المثلث المندفع عليها من اللغة المحكية واللغة الفرنسوية والانكليزية بمجرد قولنا انها مهبط البلاغة والفصاحة ومجلى الحسن والملاحة وربة الاستعارات والكنايات وشامة في وجنة اللغات. وان اكتفينا بهذا كما هو ظاهر من غارتنا على حضرة القاضي ولور اصبناها باساءة تمحو كل احسانا اليها . واضعناها من حيث اردنا المحافظة عليها

القاهرة اسعد داغر

---

# منزلة الشعر من التاريخ

## (٢)

جرّنا البحث الى امرىء القيس وهو زعيم الشعراء بلا منازع ومليك البلاغة بلا مضارع ومن شعر عبيد يُعرف ان ابا امرىء القيس كان ملكًا على اسد وان جدّتهُ تدعى ام قطام وانهُ قصد ملوك غسان مستنصرًا على عداهُ . واذا اردنا اثبات ذلك من شعر امرىء القيس وجدنا جميعهُ مع تفصيل اوضح واتم كما ترى في البيتين التاليين

اقرّ حنا امرىء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام
وانا الذي عرفت معد فضلهُ ونشدت عن حجر ابن ام قطام

قال شارح ديوان امرىء القيس اراد بنشدتُ رفعت ذكر حجر ابن ام قطام وبديهي ان الولد النجيب يرفع من ذكر ابيهِ . فدلّ قولهُ على انهُ ابن حجر ابن ام قطام

واذا اردنا المقابلة بين قولي عبيد وامرىء القيس قلنا

| عبيد | امرىء القيس |
|---|---|
| يدعو خصمهُ مُرّيّ القيس وهو مصغر امرىء القيس | يدعو نفسهُ امرأ القيس وهو ينتسب الى كندة |
| يقول ان قتيل اسد يدعى حجر ابن ام قطام | يدعو اباهُ حجر ابن ام قطام |
| يقول ان قتيل قومهِ من كندة | يقول ان بني اسدٍ قتلوا اباهُ |

فالرجل الذي يتكلم عنهُ عبيد هو بلا شك امرؤ القيس الشاعر المشهور . ومن ثم نستنتج ان حجرًا كان ملكًا على اسدٍ وانهم خلعوا نيرهُ فكبح جماحهم اولاً ثم شدّوا عليهِ فقتلوهُ وقام

امرؤ القيس يطلب بثاره منهم . وانهُ لاذ بالملوك الغسانيين . وهذه حقائق تاريخية لا وجه للريبة بصحتها

قلنا ان امرأ القيس يورد نسبهُ بايضاح واستيفاء يتفق على ما اوردهُ عبيد وذلك انهُ ينسب اباهُ الى جدهِ في قولهِ راثيًا اخوتهُ

ألا يا عين بكّي لي شنيا وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون المنية يقتلونا

ثم انهُ يذكر جدَّ ابيهِ الحارث بن عمرو في قولهِ

أبعدَ الحارث الملك ابن عمرو لهُ ملك العراق الى عمانِ
مجاورة بني شمجى بن جرمٍ هوانًا ما أتيح من الهوانِ

وقد اورد اسم امهِ في قولهِ

ألا هل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس ابن تملك بيقرا[1]

ولنا ان نستدلَّ من قولهِ هذا ان العرب كانوا لا يأنفون من الانتساب الى الامهات بل كانوا يفتخرون بالانتساب اليهنَّ كما كانوا يفتخرون بالانتماء الى الآباء . قال بشر بن حازم في امتداح اوس بن حارثة بن لام الطائي ( وهو من مشاهير سادات طي ومن كرامائها )

تداركني اوس بن سعدى بنعمةٍ وذاك الذي تزجى اليهِ الاصابعُ

وقال زهير بن ابي سلمى المزني في امتداح هرم بن سنان المرّي

لعمر ابيك ما هرم ابن سلمى بملحيّ اذا اللؤماء لوموا

ولنعد الى بحثنا الاول فنقول ان امرأ القيس تطرَّق الى ذكر اعمامهِ واخوالهِ فقال

خالي ابن كبشة قد عرفت مكانهُ وابو يزيد ورهطهُ اعمامي

وذكر رحلتهُ الى الغسانيين بيمما القيصر بقولهِ

تذكرتُ اهلي الصالحين وقد اتت على خملا خوص الركاب[2] واوجرا
فلما بدا حوران في الآل دونهم نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

وخملا واوجر موضعان يستدل من كلامهِ انهُ مرَّ بهما في سيرهِ من ديارهِ الى حوران . ثم ينتقل الى صف ناقتهُ قائلاً

فدع ذا وسلِّ الهمَّ عنك بجسرةٍ ذمولٍ اذا صام النهار وهجَّرا[3]

(١) يقر ذات معان احدها هلك (٢) الغائرات العيون واحدها اخرص او خوصاء
(٣) الجسرة الناقة الطويلة والذمول السريعة

و بعد ان يصفها بابيات يقول

عليها فتى لم تحمل الارضُ مثلهُ ابرَّ بميثاقٍ واوفى واصبرا
هو المنزل الالأف من جو تاعطٍ بني اسدٍ حزناً من الارضِ اوعرا(٤)
ولو شاء كان الغزو من ارض حميرٍ ولكنهُ عمداً الى الروم اقفرا
لقد انكرتني بعلبكٌ واهلها ولابن جريجٍ كان في حمص انكرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونهُ وايقن انَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ لهُ لا تبكِ عيناك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

وهذا الكلام يطابق ما ادَّعاهُ عبيد من سقوط دولة امرىء القيس واستنصاره بالغسانيين . واختلاف بينهما حادث من توهم عبيد ان لحاق خصمهِ بهم آخر مطلبهِ اما امرؤ القيس فأبان ان مطلبهُ ابعد وشقتهُ اقصى حيث قال : ولكنهُ عمداً الى الروم اقفرا

ولنا من هذه الابيات ادلة تاريخية نذكر منها

( اولاً ) ان العرب عرفوا مدينة بعلبك بهذا الاسم حينما كانت سورية منضوية الى المملكة الرومانية التي كانت تعرفها رسمياً باسم هيليوبوليس اي مدينة الشمس. وقد ذكر الدكتور لورته في كتابهِ سورية اليوم في الصفحتين ٦١٢ و ٦١٣ ان اسم بعلبك مشتق من بعل بمعنى الاول او الاقوى بين آلهة الفينيقيين وهو يضارع اسم زفس عند اليونانيين وجوبتير عند الرومانيين و بيلوس الكلدانيين وملكارث او هراقليس الصوريين وقد دُعي بعض المرات باسم ساتون او كسرونوس او هليوس اعني الشمس . وفي بابل تكرَّس لهُ اقدم واشهر معبد فيها وعبد متخذاً لهُ صورة الشمس اما في لبنان وانتيلبنان ( لبنان الشرقي ) فقد كانت عبادتهُ بنوع خاص . و بعلبك مفادها هيكل بعل لان بك او باكي مفادها البيت او الهيكل

ومما اورد تاهُ يستنتج ان هيليو بوليس ترجمة بعلبك الحرفية فبين الاسمين رابطة معنوية هي وحدة المفاد ولكن هذه الرابطة ليست كلية حتى تصدق على كل مدينة ذات اسماء متعددة

( ثانياً ) من قول امرىء القيس " ولابن جريج كان في حمص انكرا " نستدل على ان هذه المدينة كانت داخلة في سلطة العرب في عهد ملك الدولة الرومانية سورية بدليل اقامة رئيس عظيم عليها من العرب وهو ابن جريج . وقولنا برئاسة ابن جريج استدلال من ان من كان ملكاً لا يكون ضيفاً الاَّ لملكٍ او امير او رئيس ولا ينزل ضيفاً على واحدٍ من غمار الناس ولا سيما اذا كان ذاك الملك مستنصر ملوك كما قال خصمهُ

(٤) الحزن الوعر من الارض

وجموع غسان الملو (م) لك اتيتهم وقد انطوينا

ولو كان المستضاف من زعانف الناس فهل يليق بملك ان ينوّه باسمهِ و يستكثر من تقصيرهِ. ونستدلُّ ايضاً على ان ابن جريج من سلالة عربية من اسمهِ او تنويهِ امرىء القيس بقصورهِ في مزية الحفاوة بضيفهِ التي هي اخص مزايا العرب . ومن ان امرء القيس تزيل جموع ملوك لا تزيل ملك واحد

واذا كان ابن جريج عربيًّا كما اثبتنا فهو اما ان يكون غسانيًّا او غير غساني . فان كان غير غساني فعجب من ان المؤرخين لم يذكروا عن قبيلتهِ شيئاً مع انها تملكت او اقامت في مدينة من اهم مدن القطر الشامي ومهما تطرَّفنا بالتحامل على اولئك الافاضل فلا يمكننا ان نعزو اليهم اهمال حقيقة تاريخية كالتي نحن في صددها

واذا كان ابن جريج غسانيًّا فكيف جاز ان يحكم الغسانيون مثل حمص وهي مدينة قديمة عظيمة على مقربة منها نهر كبير "نهر العاصي" واراضيها غاية في الخصب وهي حصينة جدًّا فلا يعبأون بها ويتخذون قصبة ملكهم قرية صغيرة (٥) اشكل على مجلة المشرق تعيين موقعها فتارة تزعم انها في غوطة دمشق وطوراً في حوران واخيراً تحتم انها في جزيرة العرب وهذا التدقيق العجيب الذي يستنتج منهُ ان غوطة دمشق وحوران وبلاد العرب مكان واحد من الغرائب التي لم يسمع بها بعد

لكن يا ترى من يسلم (عدا مجلة المشرق) بان ملوكاً من اصحاب المدارك الراقية يتخذون مقرَّهم في قرية حقيرة يكون فيها مقامهم كمقام شيوخ القرى (كذا نقول المشرق) ويسلّمون المدينة الكبيرة الحصينة الى احد اتباعهم فيتمكن هذا التابع من الخروج عليهم بل من الابقاع بهم متى شاء . أوَ ليس العقل السليم يحكم انهم ولّوا تلك المدينة الكبيرة لتابعهم لانهم اتخذوا لهم مباءتهم مدينةً او مدناً اعظم منها وعلى هذا يفضي بنا البحث الى التسليم بان ملوك غسان استقرُّوا في جلّق اعني دمشق وذلك لان دولة بني غسان تمتدُّ (على قول المشرق) "من غوطة دمشق الى تدمر" وليس في هذا الاقليم مدينة افضل من حمص في السعة والخصب والمنعة الاَّ دمشق فدمشق عاصمة مملكة الغسانيين . هذا ما ينتج مع مجاراتنا المشرق في تحديد مملكة بني غسان مع انهُ تحديد فاسدٌ واوضح دليل على فسادهِ اجماع المؤرخين على ان جبلة وهي مدينة على شاطىء البحر بين مدينتي اللاذقية وطرابلس من بناء الغسانيين فاذن قد اتصلت مملكتهم بالبحر وهو ما ينكرهُ المشرق بقولهِ ان مملكتهم تمتد من غوطة دمشق الى تدمر

(٥) مجلة المشرق سنة ٣ جزء ٦ و ١٠

( ثالثاً ) لنا من قول امرىء القيس

"عليها فتى لم تحمل الارض مثلهُ ابر بميثاق واوفى واصبرا"

دليل على ان العرب كانوا يفاخرون بحفظ المواثيق والوفاء بالعهود و يعتبرون الصبر على المشاق من اشرف الفضائل . ومن البديهي ان الميثاق الذي يبرمهُ ملك او اميرٌ يقتضي ان يكون حتماً مع امير او رئيس مطاع وهذا مما يستدل بهِ على ان العرب كانوا على جانب عظيم من المدنية التي يفتخر بها ابناء هذا العصر المنير

ولقائل يقول انَّى يكون للقبائل العربية سهم في المدنية وهم في شغل شاغل من ترادف الغزوات وتتابع الغارات واصلاء نيران الهيجاء على حين نجد المدنية تحول دون ذلك اجيب ان المدنية كانت وما برحت تعتبر الحرب من مستلزمات الحياة فالأمة المصرية كانت في ابان زهوتها العلمية مستغرقة جميع قواها في الحروب وقس عليها سواها كالاشورية والفارسية . اما السبرطيون فكانوا يقضون سحابة الحياة كلها متجندين للقتال . وقد مرَّ على اثينا عصر الفلسفة اعني عصر سقراط وفيثاغورس وافلاطون وهي مشتبكة بالقتال المستمرّ. وقد رأت رومية عصر شيشرون وفرجيل ابهج عصورها العلمية وهو مملوء بحروب بمبيوس ويوليوس قيصر واقتاڤيوس واغسطس كما يُعرف كل ذلك بادنى لحظة في تواريخ تلك الامم الشهيرة . فالحرب لم تكن في عرف المدنية قديماً امراً محرَّماً او مستقبحاً وهي كذلك في عهدنا هذا . واذا رأينا المؤتمرات الدولية تلتئم لسنّ الشرائع فيما بينها لرفع القتال فذلك لانَّ فنَّ الحرب اضحى متقناً بمعداتهِ الهائلة ولا سيما بعد وضع التجنُّد قانوناً مرعي الاجراء ولهذا امسى نشوب القتال عائداً على المتحاربين كليهما بالخسائر فضلاً عن ان الحرب تعدُّ الغالب طعمة لمترصِّدٍ فرصة ضعفهِ فينقضّ عليهِ بكل قواهُ .

( رابعاً ) يستخلص من قول امرىء القيس "هو المنزل الاالأن في جو ناعط ..." ان قبائل العرب المتبدّية كانت اذا خشيت من بأس العدوّ لجأت الى حزن وعر او لاذت بقنّة جبل واقامت هناك حاذرة من مفاجأة الخصم ولذلك لا ينالها مكروه وقد اعرب عن ذلك بوضوح النابغة الذبياني في قولهِ

وحلت بيوتي في يفاع ممنع يخال بهِ راعي الحمولة طائرا
تزلُّ الوعول العصم[٦] عن قذفاتهِ وتضحي ذراهُ بالسحاب كوافرا
حذاراً على ان لا تنال مقادتي ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

(٦) العصم واحدها اعصم الذي في يديهِ بياض

وكانت تحصن خشية من الضواري ايضاً بدليل قولِ امرىء القيس

لعمري لقوم قد نرى في ديارهم مرابط للامهار والعكر الدثرْ(٧)

احب الينا من اناسٍ بقنة يروح على آثار شائهم النمرْ(٨)

فينجم عن ذلك ان العرب حتى البدو منهم كانوا يألفون التحصّن في منازلة الاعداء وكانوا يتذرعون بهِ في دفع الطوارىء والضواري

واذا كان هذا شأن العرب البدو والحضريون منهم ذوو معاقل وحصون وآطام وبنو غسان من هؤلاء فكيف يجوز ان نقول ان ملوكهم اهملوا المواقع الحصينة وسلموها الى حاشيتهم ونزلوا هم مكاناً غير حصين اعني قرية حقيرة في منقطع من الديار النائية

(خامساً) يستدل من قولهِ . "ولو شاء كان الغزو من ارض حمير . . . ." ان الدولة الحميرية كانت في عصرهِ ذات صولة لكنهُ استنكف من الاستنجاد بها

وقد سبق لنا القول بان بني اسدٍ قتلوا حجراً والد امرىء القيس فاذا رغبنا في الوقوف على ما كان من امر هذا الشاعر البليغ عند ما بلغهُ نعيُ والدهِ استطعنا معرفة ذلك من قولهِ

أرقتُ لبرقٍ بليل اهل يضيء سناهُ باعلى الجبلْ

اتاني حديث فكذّبتهُ بامرٍ تزعزع منهُ القللْ

بقتل بني اسدٍ ربهم الا كلُّ شيءٍ سواهُ جللْ(٩)

فاين ربيعة عن ربها واين تميم واين الخولْ

الا يحضرون لدى بابهِ كما يحضرون اذا ما بذلْ

وقال ايضاً

تطاول الليل علينا دمونْ(١٠) دمونَ انّا معشرٌ يمانونْ واننا لاهلنا محبونْ

ونستنتج من ذلك (اولاً) ان امرأ القيس لما بلغهُ نعيُ والدهِ كان في جبل دمون. (ثانياً) ان بني كندة قبيلة يمانية (ثالثاً) صحة ادعاء عبيد ان قومهُ فتكوا بابي امرىء القيس كما صرّح امرؤ القيس بذلك مراراً كقولهِ

يا لهف هند اذ خطئنَ كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا(١١)

ويتبين لنا من هذا البيت ان قاتل حجر من كاهلٍ وهي عشيرة من بني اسدٍ كما سبق لنا

(٧) العكر قوق خمسمائة من الابل والدثر الكثير

(٨) الشاء جمع شاة وهي شر المال عندهم كنا يقول شارح ديوان امرىء القيس (٩) جلل هنا بمعنى حقير

(١٠) دمون اسم جبل (١١) السيد الشجاع

للقول بذلك. واذا ناسبنا بين اياتهِ اللامية التي رويناها اي "ارقت لبرقٍ ...." وقولهِ

فلا وابيكِ ابنة العامريـ (م) لا يدعي القوم اني افرّ
تميم بن مرّ واشياعها وكندة حولي جميعاً صُبُرْ (١٣)
اذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّنت الارض واليوم قَرّ (١٤)

نستنتج ما يأتي (اولاً) ان امرأ القيس كان يجهل عند ما بلغهُ النعيّ ان بني تميم مشايعون لبني اسد في نبذ طاعة ابيهِ وفي قتلهِ ثم عرف ذلك بعدئذٍ (ثانياً) ان كندة باسرها تضامّت حول امرىء القيس لاخذ ثار ابيهِ واذا نظرنا الى قولهِ

تبصرْ خليلي هل ترى من ظعائنٍ سوالكَ نقباً بين حزمي شعَبْعَبِ
علونَ بانطاكية فوق عقمةٍ (١٤) كجرمة نخلٍ او كجنة يثربِ (١٥)

كان لنا ان نستخرج من البيت الثاني امورًا منها (اولاً) ان انطاكية كانت في ايام الشاعر مشهورة بالنسيج (ثانياً) ان العرب كان لهم علائق تجارية مع مدن القطر الشامي وكانوا يعرفون واردات تلك المدن (ثالثاً) ان يثرب كانت في عصر امرىء القيس مشهورة بجناتها حتى انهُ ضرب المثل بها

وفي هذا القدر كفاية من الإلمام بشعر امرىء القيس خاصّة وسنستشهد بشيءٍ من شعرهِ في خلال الابحاث العامة . على اننا لو اردنا ان نجمع كل ما يمكن استنتاجهُ من شعر امير الشعراء مما يُستدلّ بهِ على حالة من احوال معاش العرب او على مُلحة من اقوالهم او مَلْحَمة من وقائعهم لكان لنا من ذلك رسالة خاصّة لا تقلّ صفحاتها عن عدد صفحات هذه الرسالة . ولا يُغرب عن القارئ الكريم انني كنتُ اجتزئ ببعض الاستنتاجات من شعرهِ دون الجميع حذرًا من الإطالة المخلّة

امين ظاهر خير الله

(١٣) تميم بدل من القوم والواو في وكندة للحال لا للعطف وصبر جمع صابر
(١٤) استلأموا لبسوا اللامة اي الدرع والقر البارد
(١٤) العقمة المرط الاحمر او كل ثوب
(١٥) والبعض يضبطونها بالباء بدل التاء